رسالة الشباب فى العصر الحديث

بقلم الأستاذ سلامة موسى

يختلف العصر الحديث عن جميع العصور الماضية . ووجوه الاختلاف كثيرة ، ولكن أهمها وأبرزها أن النشاط الانسانى قد اتخذ فى بعض نواحيه اتجاهات عالمية بعيدة المدى . ذلك بأن الانسان قبل مائة سنة تقريبا كان يعيش جماعات كل منها فى قرية ينظر الى شؤونه نظرا قرويا ، أما الآن فالدنيا قد تقاربت وكأنها صغرت وكأنما صار العالم كله قريتنا الكبرى ، فان سرعة المواصلات بالبخار والسيارة والطائرة ، وسرعة نقل الأنباء بالتلغراف والتليفون والراديو جعلت التجارة والصناعة فى حالة من الانتشار والذيوع لم تكونا تحظيان بمثلها من قبل .

وهذه الحرب القائمة فى أوربا قد اتخذت أيضا امتدادا عالميا لنفس الأسباب التى جعلت للتجارة والصناعة مثل هذا الامتداد ، ففى استطاعتنا نحن سكان القاهرة إن أردنا وبواسطة أجهزة خاصة أن نسمع دوىّ المدافع وأزيز الطائرات فى ميادين الحرب البعيدة ، بل لقد استطاع سفير الصين قبل نحو سبع سنوات أن يثبت لعصبة الأمم اعتداء اليابانيين على منشوريا بأن نقل عن طريق الميكروفون الى الأعضاء فى الجلسة أصوات المعمعة فى الشرق الأقصى .

وقبل نحو ثلاثين سنة كنا نقرأ أخبار المديريات ومدن الريف فى مصر مبسوطة بإسهاب فى الصحف المصرية ، ولكنا الآن نهتم بما يجرى فى توكيو أو برلين أو موسكو كما نهتم بما يجرى فى عواصم مديرياتنا ، لأن الدنيا قد تطورت ، وهذا التطور قد اكسبنا مزاجا عالميا . وفى هذا كسب وخسار معا .

فأما الكسب فهو هذا التوسع الذهنى ونمو المعارف وزيادة البصر بصيرة فى التاريخ الحديث والشعور بالتضامن البشرى . وأما الخسار ففى فقد اننا تلك السذاجة القروية القطرية التى كنا نعيش فيها ، ثم زيادة أعبائنا بزيادة تبعاتنا ، إذ أصبحنا متضامنين مع العالم كله نشاطره مصائبه وسعاداته أردنا أم لم نرد ورضينا أم لم نرض ، ذلك أننا مضطرون الى أن نعيش فى العالم تصدمنا حوادثه ونتأثر بآرائه ومذاهبه كل يوم . والآراء والمذاهب معدية كالأمراض

سواء بسواء ولا نستطيع أن نقيم حاجزا جمركيا دون الآراء والمذاهب نجيز هذا ونمنع ذاك ، لأن عدوى المذاهب كعدوى الأمراض تتسلل وتنفذ فى الخفاء ، فليس أمامنا سوى النور والفهم للتمييز بين النافع منها والمسيء .

وهذه الآراء والمذاهب تحدق بنا وتحوم فوق رءوسنا وتصدم أذهاننا كل يوم، فنحن منها فى حيرة وقلق نشقى بهما . وقد كان آباؤنا يعيشون عيشتهم القروية المحدودة فى يقين واستقرار قانعين مطمئنين الى ماورثوا من عادات وتقاليد ، يرون الحق فيما ألفوا أنه الحق، ويرون الباطل فيما تواضعوا على أنه الباطل ، أما نحن فكيف نجزم بأن هذا حق وهذا باطل ونحن نسبح فى نظريات وآراء تتراوح بين نظريات مضطربة متضاربة تمس أصل الإنسان و بين أصول الحكم وطريق الرقى للفرد وللشعب وللمجتمع .

وفى هذا الخضم العاصف من الآراء والنظريات يطالب الشاب العصرى بأن يكون له رأى فى كل شيء، ولن يكون له رأى إلا بعد درس وجهد وتمحيص، بل الواقع الحق أن كل شاب يحس إحساس عصره ويخضع لنواميس الضمير الاجتماعى يشعر بأنه فى كفاح ثقافى واسع الميدان لأنه يجد نفسه مرغما على أن يؤيد أو يعارض هذا الرأى أو ذاك المذهب ، وعلى أن يكون عدوا أو صديقا لهذه الدعاية أو تلك وعلى أن يشايع الصين فى ديمقراطيتها أو يحاز الى روزفيلت فى اتجاهاته الاجتماعية .

وهذا الشاب المستنير الذى يحس أن العالم قريته الكبرى يبعثه كفاحه الثقافى الى العمل، وهو قد يبدأ فى الثقافه متفرجا مستمتعا ، ولكنه ينتهى مجاهدا عاملا .

وما هذا الجهاد وهذا العمل ؟

هما محاولة تحقيق قسط من الإصلاح فى هذا العالم بما تقتضيه ظروف العصر الجديد فلقد ورث العالم تقاليد اجتماعية واقتصادية وأخلاقية ، وحرص آباؤنا وجدودنا على هذه التقاليد، وكانوا محقين فى الحرص عليها لأنها وضعت لنظام بدائى يقوم على الزراعة، والوسط الزراعى بطبيعته هو وسط القرية ، وهو من ثم ساذج تكفيه أبسط الأجهزة الأخلاقية والاقتصادية، ولكن بعد أن استحال هذا الوسط إلى وسط عالمى و بعد أن أخذت الصناعة الآلية مكان الزراعة اليدوية صارت هذه الأجهزة بمثابة الشمعة نشعلها لكى نحاول أن نضيء بها المدينة .

وهذه التقاليد هى التى أدت إلى الحرب القائمة . لأن الحروب — لسوء الحظ — من لباب التقاليد . وألفاظ المجد والنجدة والفروسية وأكاليل النصر إنما هى ألفاظ الحروب التى يحفل بها التاريخ . بل التاريخ نفسه تقاليد ، والدعوة الى الحرب هى نداء التاريخ وصرخة

الماضى الميت والأحقاد المدفونة للأحياء بل للشباب من الأحياء لأنهم هم — دون غيرهم — الذين يكلفون القيام بأعباء الحرب و يعترضون للموت أكثر من غيرهم .

إننا الآن مثقلون بتقاليد كأنها القيود ورثناها عن نظام زراعى محلى ونطالب بتطبيقها على نظام صناعى عالمى، ومن هنا اضطرابنا وحيرتنا وقلقنا ، ومن هنا ينشأ واجب الشباب .

* * *

واجب الشباب هو الاستقلال الروحى والذهنى الذى يمهد لإحداث انقلاب ثقافى .

فإن العالم مزعزع بل مزلزل تهزه مذاهب جديدة وقديمة فى الاجتماع وترجه نزعات غريبة فى فهم معنى التسلط والاستعمار . وقد خرج العلم من أيدى العلماء الى أيدى الساسة فأساءوا استخدامه واستغلاله . فلقد أصبح كل اختراع وكل اكتشاف قصد منه الى خير البشر وزيادة رفاهيتهم وسيلة إلى الشر ، حتى المذياع الذى كان فى بدايته لهوا بريئا وثقافة مفيدة قد صار أداة لنشر البغضاء ودعاية للحرب ، وحتى الميكروبات التى كشف عنها العلماء لكى يكافحوها و يزيدوا عمر الانسان سنوات قد صارت تربى الآن لكى تطلق على الشباب لقتلهم أو تقصير أعمارهم ، وحتى النترات الذى اكشف عنه عالم لكى يستخدم فى زيادة الغلات من الحبوب قد صار يستعمل الآن فى صنع القنابل ، وهكذا الشأن فى الغازات والطائرات .

كل هذا لأن الساسة يتأثرون بما فى كتب التاريخ ولا ينسون مجد الامبراطورية وتسلط القيصرية . وهذه تقاليد تتحدر من التاريخ يختلط فيها اسم اسكندر باسم جنكيز خان باسم نابليون ويحفظها صغار التلاميذ فتشعل مخيلاتهم فيودون أن يتشبهوا بمن سماهم التاريخ عظماء . وهذه الرغبة فى التشبه والمحاكاة هى التى تثمر مثل هذه النار المتأججة فى ميادين أوربا اليوم .

واجب الشباب هو الاستقلال الروحى والذهنى، ولكن الاستقلال لا يتحقق بغير المعرفة، لأن الغاية من هذا الاستقلال هى أن يقول الشاب : " أنا قادر على أن أغير وأصلح بما يقتضيه العقل والعصر " بيد أن القدرة لا تتراءى الا بعد المعرفة والدرس والتثقف . فلكى يستقل الشاب استقلالا روحيا وذهنيا يجب عليه أن يدرس و يتثقف ، ثم يجب ألا تكون هذه الثقافة ثقافة التأمل والاستمتاع والاطلاع ، بل يجب أن تكون ثقافة العمل والكفاح . والمعارف المجردة معارف ذاهبة فى الهواء ، فيجب أن ندرس ما يلابس بيئتنا الاقتصادية والأخلاقية والاجتماعية والسياسية . و بيئتنا الآن — بيئة كل فرد مثقف مسئول — هى العالم كله ، فينبغى أن يكون هذا شأن كل واحد منا . يجب أن يلم كل منا بمشكلات العالم وأن يدرس أسبابها وأعراضها وحلولها ، ترقبا لحدوث مثل هذه المشكلات فى وطننا . لأن العصر يطبعنا جميعا بطابع واحد .

أجل ، يجب أن ندرس جميع الحركات الذهنية التى نتصل بأطراف موجاتها أو لانتصل بها وسواء أكانت هذه الحركات خيرا أم شرا ، لكى ننتفع بالأولى ونتقى الثانية .

ولكن الدرس ليس نشاطا فحسب، ليس شراعا بلا مرساة أو بلا بوصلة . فلكى ندرس ولكى يثمر هذا الدرس يجب أن تكون لنا فلسفة توجيهية هى البوصلة والمرساة معا ، تعين لنا اتجاهها وتدلنا على الميناء التى نقف عندها ؛ يجب أن تكون لنا فلسفة توحى الينا مثلياتنا وتوجه شراعنا . وهنا يجب أن نسأل : ماهى الفلسفة ؟

لقد كان أسلافنا يرمون من الفلسفة الى البحث عن ماهية الشيء . ولكنا الآن أدرى بهذا الموضوع منهم ، فان البحث عن ماهية الشيء هو ميدان العلم ، أما الفلسفة فيجب أن تبحث عن قيمة الشيء وأثره ، فمشكلاتنا الفلسفية الآن يجب أن تحتوى على سؤال : ما هى قيمة هذا الرأى وما قيمة هذا المذهب لخير الناس ؟

ومتى سألنا هـذا السؤال ، إننا نجد أن كثيرا من الأبحاث الفلسفية القديمة كان لغوا أو مجرد كلام . بل متى سألنا هـذا السؤال استطعنا أن نصبغ الفلسفة بالصبغة الانسانية ، وبذلك يصير كل منا فيلسوفا ، لأن الفلسفة عندئذ تعالج مشكلات الفاقة والجهل والحرب والسلام والمرض والتربية وما إلى ذلك من مشكلات البيئة ، وتترك مشكلاتها القديمة التى أفنت الأجيال وأذابت أدمغة الفلاسفة بلا جدوى محققة ولا نفع أكيد .

إن العالم كله فى حاجة الى التغيير فمن يغيره سوى الشباب ؟

ونقول العالم كله ، لا هذا الوطن وحده أو أى وطن آخر . فليس فى الإمكان اليوم أن يعيش وطن مستقلا مستغنيا عن سائر العالم . ذلك أن التيارات الفكرية والروحية تنسل إليه أو تغير عليه كما تفعل الأوبئة سواء بسواء . ثم إن العصر الحديث يطبع العالم بطابعه و يوحد بين مشكلاته . فخلاص قطر من الأقطار لايمكن إلا بخلاص العالم كله . فيجب أن تكون لكل شاب ذهنية عالمية كما يجب أن تكون له فلسفة توجيهية تنصب أمام ذهنه المثليات وتعين له طريق الدرس والتثقف .

إن العالم يسير نحو التوحيد فى الثقافة والفنون وفهم الحياة . وهذا التوحيد يخدم السلم والتعاون بين الأمم ، لأنه ينقص الفروق التى توهم الاختلاف والبعد بين الشعوب فيجب أن تساعد على هذا التوحيد .

* * *

خلاصة القول أن العالم فى انكماشه وارتباط أقطاره و بلدانه يدعونا إلى واجبات جديدة

وأقيسة جديدة على الشباب أن يستنبطها بالدرس والفهم من الظروف القائمة ، ويستنبطها مستقلا مبتكرا حرا من قيود التقاليد الماضية . فإن أقل ما يقال فى تبرير هذا الاستقلال أننا فى هذا العام ١٩٤٠ نعانى من الفوضى ما ربما ينتهى بدمار مدننا وتقتيل أولادنا امام أعيننا . فالحكمة التى تمثل فى التقاليد والتى نطالب الشباب بأن يركنوا إليها لاتجد التركة من حوادث هذا العام ولا من حوادث الخمسين أو المائة من السنين الماضية .

بل نحن — لو حاولنا — ان نستطيع أن نثبت حكمة التقاليد للشباب سواء فى الاجتماع أو الاقتصاد أو الأخلاق أو حتى فى الآداب أو المثليات ، وهم يرون النتيجة أمام أعينهم فى خراب العالم وقبل ذلك فى التعطل والفاقة . فلا مفر لنا من أن ندعوهم إلى التفكير المستقل . فكل شاب — مصريا كان أم غير مصرى — مثقل فى الوقت الحاضر بتراث من الثقافة والأنظمة كأنها الدَّين الثقيل على التركة يجب عليه أن يتخلص منه قبل أن تخلص له التركة .

وهناك كثير من المتشائمين يحسبون مانحن فيه حشرجة الموت وإيذان الانقضاء للحضارة ، ولكن أسس الحضارة أثبت من أن تمحوها الحرب أو على الأقل حرب واحدة وإن كانت قادرة على زعزعتها . وقد يكون مانحن فيه مخاض الميلاد للعصر الجديد ، فينهى التزعزع الحاضر الى نوع ما من الاستقرار .

ونحن نرى فى الوقت الحاضر حركات بازة وحركات فاجرة فى الاجتماع والسياسة والأخلاق والاقتصاد . فواجب الشباب أن يدرسوا و يميزوا بينها . فالديمقراطية قد تدرس من الكتب ولكنها لا تفهم إلا بعد استقراء أحوال المعيشة التى يعيشها الفلاح فى ريفنا ومقابلتها بتلك الأحوال الأخرى التى تلابس العمال فى العالم المتمدن . والبيئة الصناعية التى أخذت رويدا رويدا تتفشى فى مدننا سوف تجلب إلينا جميع المشكلات التى تعانيها أوربا والتى نحسها فى أحجام مصغرة .

ومهما يكن هذا الاستقرار المنتظر للعالم عقب الحرب القائمة — إذا نحينا عن أذهاننا فرض الفوضى — فإنه استقرار ينزع الى الحرية نزوعا شديدا . أعنى أنه سيكون استقرار الأحرار الذين يبغون سعادة العالم وراحة البشر .

وواجب الشباب أن يخلقوا دنيا جديدة تقوم على التضامن البشرى ، على المذهب العالمى ، على ثقافة الكفاح للتغيير والإصلاح ، على محو الفاقة ومضاعفاتها من مرض وجريمة ، على الديمقراطية السمحة والتسوية الاقتصادية ، على المجد ببناء البيت النظيف بدلا من الخندق المتين .

وعلى ذلك نستطيع أن نقول واجب الشباب :

(١) أن يستخدموا العلم للخير : للسلم لا للحرب ، لزيادة قوى النور لا قوى الظلام .

(٢) أن يفهموا من التاريخ الماضى أنه قصة المحن الإنسانية وأن يكون كل شاب مسئولا عن المستقبل حتى يصير تاريخنا تاريخ السعادة البشرية .

(٣) أن يكون لكل شاب فلسفة توجيهية هى بوصلته فى الثقافة . وأن يقرأ لكى يعمل لا لكى يستمتع .

(٤) أن يدرس مشكلات العالم ومثلياته . حتى يندمج فى موكب الرقى العالمى العام .

(٥) أن يقيس الرقى بأقيسة عالمية سواء فى الأخلاق أو الاقتصاد او الاجتماع .

(٦) أن يسير فى كل ذلك مستقلا بروحه وفكره لا يخضع الا بهداية عقله بعد الدرس والتفهم .

* * *

والشاب الذى يأخذ على نفسه هذه التبعات هو الشاب الجديد . هو الرجل الجديد الذى تحتاج اليه مصر كما تحتاج اليه كل أمة أخرى ، وإن تفاوتت الدرجة فى الحاجة . وهو ليس الشاب الذى يبلغ الشيخوخة فى سن العشرين أو الثلاثين ويتثاءب كثيرا ويقعد كثيرا على القهوة يقتل وقته فى التسلية .. وهو ليس الشاب الذى ترهل جسمه بالكسل وترهل ذهنه بقراءة القصص والمجلات المصورة . وهو ليس الشاب الذى ينغمس فى الخمر ويطرد السأم بالتدخين .

لا . ليس هذا هو الشاب الجديد الذى ينتظره العصر الحديث . ليس هو أمل مصر أو أمل غيرها من الأمم . الشاب الجديد أعرفه بسيمائه : هو أميل الى النحافة منه الى البدانة ، لا يعرف الترهل فى جسمه أو ذهنه ؛ لأنه متنبه جاهد يدرس ويسأل ويهتم . يقرأ الجرائد والمجلات العالمية ، وله فوق ذلك مكتبة فى بيته . وهو معتكف من غير أن يكون ناسكا . يهتم بمصر ولكن قريته الكبرى هى العالم . وله عادات تعينه على حبس كثير من وقته للرقى الذهنى والكفاح الثقافى . فهو يجهل ألعاب التسلية وإن كان يحب الرياضة ، وهو يكره الخمر والتدخين ، وهو يحاول — حين يتزوج — أن يرفع زوجته الى مستواه الثقافى ، وهو متدين ينظر ويفكر ويتحمل الهموم البشرية . ومثل هذا الشاب يبقى شابا حتى حين يبلغ السبعين أو الثمانين من العمر ، لأنه يأبى أن يتقاعد ويوضع على الرف . فقد تعود ذهنه عادات الدرس

والبحث وتحمل ضميره تبعات الكفاح للخير والبر . وعند أولئك الذين يقيسون السعادة بمقياس الرفاهية والرخاوة والطراوة لا يعدّ هذا الشاب سعيدا . ولكن هل من حق أحد أن يعيش فى مثل الفوضى العالمية القائمة و ينشد السعادة لنفسه ؟ حسبه أن يكون مجاهدا .

كلنا يقول إن العالم فى طور الانقلاب . ولكن هل هـذا الانقلاب الى الخير أم الى الشر ؟ هل هو يقودنا الى توحيد القيصرية أو توحيد الديموقراطية ؟

إن هذا العالم ملك الشباب، ويجب أن يكونوا أصحاب الرأى فيه . ولن يستطيع قيصر جديد أن يتحكم ما لم يجد خضوعا من الشباب . وقد يكون هذا القيصر قزما فى ذهنه وروحه ولكنه لم يجد المقاومة من الشباب لأنهم اغتروا بأباطيل التـاريخ ولم يستقلوا فى تفكيرهم ولم يناقشوا تقاليدهم .

قد يقول أحد الشباب : مالى وللعالم ؟ ما لى والإصلاح ؟ وعلام هـذا الجهد الذى لا يثمر فى النهاية شيئا ؟ حسبى السعادة التى أجنيها بخدمة نفسى وليأت من بعدى الطوفان .

ولكن هذا الطوفان قد أوشك أن يبلغنا بل نحن على حافته .

فاذا لم تصلح بيئتنا فان مساوئها تعود علينا . ولن نستطيع أن نسعد بالأنانية. والأنانى هو فى النهاية أشقى الناس، لأنه سيجد بعـد طول الجهد أن مطامعه حين تتحقق لا تساوى المجهود الذى بذل فى سبيلها. فواجب الشباب ألا يكونوا أنانيين، وأن يلبوا نداء الروح البشرى، ولا ييأسوا من انبلاج عصر جديد — هذا العصر الجديد الذى يرجو جميعنا أن تثمره الفوضى الحاضرة .

سلامة موسى